الخطاب الفائز بالمركز الأول لعام 2015

قال لزوجته: اسكتي. وقال لابنه: انكتم.. صوتكما يجعلني مشوش التفكير!
لا تنبسا ببنت شفة أريد أن أكتب عن حرية التعبير.

السيدات والسادة الأفاضل

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

يطيب لنا في البداية أن نعبر عن فخرنا إلى ما تصبو إليه آخر موضوعات حقوق الإنسان في سبيل تعزيز الروابط من أجل مناهضة خطاب الكراهية. فقد أصبحت قضية حرية التعبير وخطاب الكراهية من أكثر الموضوعات القابلة للانفجار والاتساع بوتيرة خيالية بسبب قابليتها للتحور بحسب البيئة الخصبة المتاحة لها، فإما إلى التقدم بمستوى حقوق الإنسان في فضاء ملؤه الديمقراطية وإما للإطاحة بها في فضاء الكراهية والعنف.

وعليه، فقد اخترنا هذا الموضوع لأهميته البارزة في الأسرة الحقوقية في العالم جمعاء، وفي مملكة البحرين بشكل خاص، هذه الدّرة الرصينة التي تتلوث بالسموم التي تبثها خطابات الكراهية المغلفة بعنوان حرية الرأي والتعبير.

الحضور الكريم،

إن مراحل الإساءة إلى الأديان تبدأ من عنصر الكراهية، فالتعصب فالازدراء. فلو قرأنا كتاب الله – جلّ وعلى- جيدًا لأمكننا الإجابة على استفسار «هل نطبق مبادئ كتاب الله في خطاباتنا الداعية للكراهية؟»، «أيُّ آية قرآنية – والعياذ بالله – تدعو لحرية التعبير على حساب ازدراء الأديان؟»، هل الآية القرآنية ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ أم الآية ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾؟

ومن هذا المنطلق، يمكننا أن نلاحظ أن الدين كله براء من مفردات الكراهية بجميع أشكالها. فقد جاءت أحكام الدين الإسلامي الحنيف معبرة عن حالة التعايش السلمي والاحترام المتبادل بين الشعوب وعدم اللجوء للعنف والتطرف والإرهاب الفكري في حسم الخلافات.

وقد كفل دستور مملكة البحرين التمتع بحرية التعبير في مادته (23)، والتي أشارت إلى أن «لكل إنسان حق التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو غيرهما»، بيد أنه قيّدها بالنص على أن

تُمارس هذه الحرية «وفقًا للشروط والأوضاع التي يبينها القانون، مع عدم المساس بأسس العقيدة الإسلامية ووحدة الشعب، وبما لا يثير الفرقة أو الطائفية». ذلك، وإن كان الحق في حرية التعبير- كما بينه العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية الصادر عام 1966م في المادة (19) الفقرة الثانية، والذي انضمت إليه مملكة البحرين بموجب القانون رقم (56) لسنة 2006م - يشمل الحرية في التماس مختلف ضروب المعلومات والأفكار وتلقيها ونقلها إلى آخرين دونما اعتبار للحدود، ويمتد أيضًا ليشمل الحق في الخطاب السياسي ومناقشة موضوعات حقوق الإنسان والصحافة والتعبير الثقافي والخطاب الديني، إلا أنه ليس من الحقوق المطلقة، ولذلك فإن الفقرة الثالثة من المادة نفسها أجازت للدول إخضاع هذا الحق لبعض القيود شريطة أن تكون محددة بنص القانون، وبأن تكون ضرورية لحماية النظام العام. كما أن المادة (20) من العهد ذاته قد ألزمت الدول أيضًا بـ «حظر» حرية التعبير التي تشكل دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية.

أيها المرابطون في ميادين حقوق الإنسان، والمؤمنون بالأبعاد النضالية والفكرية للكرامة الإنسانية:

إننا أمام ممارسات كثيرة، ترفع اليوم أكثر من أي وقت مضى سقْفَ جرمها بالمزيد من استعمال العنف اللفظي والجسدي جراء زرع الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية، سبّبتها «أشواك الكراهية» المزروعة في الإنسان منذ ولادته ضد أخيه الإنسان، والتي هي موروث متوحش؛ قد يفزع لإصابة الحوت، ولا يستأنس لمن يلتهمه الحوت، أو تقذفه أمواج البحر، أو تقبره رمال الصحارى تيهًا وضياعًا.

فخطابات الكراهية في وقتنا الحالي تُنادى فوق المنابر الدينية وعلى الطاولات، وتتداول عبر شبح الوسائط الإلكترونية، وتمد يدها للتصافح مع منظمات خارجية لدعم خطابات الكراهية لتتغلغل بشكل أكثر حرفية بين أوساط المجتمع البحريني. ولم تتوقف عند هذا المدى، بل أمالت ظلالها الرمادي لتغرس بذور الكراهية والعنف في عقل الطفل؛ ذلك العقل البريء الذي تلوث بسمومٍ تقتل صفو براءة فكره.

ولاشك بأنه تعتبر «خطة عمل الرباط: بشأن حظر الدعوة للكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية التي تشكل تحريضًا على التمييز أو العداوة أو العنف»- والتي اعتمدها مكتب الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في الرباط بالمغرب في 5 أكتوبر -2012 الخط الفاصل بين حرية التعبير وخطاب الكراهية، حيث أشارت الخطة في محتواها إلى عتبة أشكال التعبير التي تُحظر بموجب القانون الجنائي، آخذةً في الاعتبار سياق التحريض على الكراهية، والمخاطِب، والنية، والمحتوى، ومدى الخطاب، ورجحان إحداث الضرر.

أيها الإنسان.. أيها الناس..

هكذا نادانا ربنا دون تمييز من غير فوارق ولا تفريق، إلا بالعمل الصالح، وكما قال رسولنا الكريم: لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. فهل يوجد أفضل من العمل على نزع فتيل الكراهية بين الذين خلقهم الله كأسنان المشط وجعلهم خلفاء له في الأرض؟ إن خطاب الكراهية يمس قواعد التعايش السلمي، وإدراكًا من المجتمع الإنساني بأهمية التوازن في العلاقات بين بني البشر، نص الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 1948م على أن:«يولد جميع الناس أحرارًا متساوين في الكرامة والحقوق». وجاء ذلك من منطلق أن المجتمع الديمقراطي التعددي لا يمكن أن يتأسس إلا على التسامح واحترام كرامة كل البشر، باعتبار أن الثقافة ينبغي أن يُنظر إليها بوصفها مجمل السمات المميزة، الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، التي يتصف بها المجتمع وعلى أنها تشمل، إلى جانب الفنون والآداب، طرائق الحياة، وأساليب العيش معًا.

ومن ثم فإن مواجهة خطاب الكراهية يتحتم علينا ضرورة التكاتف معًا من أجل رصف طريقين متوازيين لا محيد عنهما: الأول هو الطريق القانوني، من خلال تجريم جميع أشكال التعبير التي تروج للكراهية القائمة على اللاتسامح تجاه الآخر المختلف دينيًا أو ثقافيًا أو عرقيًا، والآخر يتمثل في التربية والثقافة وبناء قدرات الإنسان ليمنح الإنسان حدًا أدنى من المناعة الحضارية ضد السقوط في الكراهية العمياء للآخر، وذلك من خلال المساهمة في إنشاء تحالف يجمع بين مؤسسات المجتمع المدني ووسائل الإعلام بغية تعميق ثقافة الأخوة الإنسانية، والعمل على تطوير المناهج التعليمية لغرس هذه القيم. ولا أقصد هنا تلقين قيمة التسامح كما تعلَّم المعارف كمقرر التاريخ، بل يُقتضى إدماجها في مجموع العملية التعليمية كقاعدة تؤطر السلوك الاجتماعي للمعلم كما للمتعلم، إلى جانب ضرورة ترشيد الخطاب الديني لإرساء الأمن الاجتماعي.

سأختم كلمتي بالإشارة إلى مقولة جميلة جدا: «إذا وجد الإرهاب الفكري فقد وجد كل إرهاب، كما أنه إذا وُجدت الحرية الفكرية زال الإرهاب كله.. فلا حرية إذا لم توجد الحرية الفكرية، وإذا وجدت فقد وجدت كل حرية، ومن المستحيل أن نكون أحرارًا ما لم نكن أحرارًا في تفكيرنا وفي التعبير عنه».

وعليه فإما أن نكون من الذين أنعم الله عليهم بتفعيل نعمة الفكر في تطبيق نطاق حرية التعبير، وإما أن نكون مع رَكبٌ الذي يضرّ غيره ليشقي نفسه وينادي بحرية التعبير كتعويض عن حرية الفكر، والخيار لكَ أو لكِ لاختيار المركب الذي سوف يسير بكم نحو حصيلة بذرة السلام التي ستزرعونها في أحشائكم، في حديقة منزلكم، أو حتى على جدران مدرستكم التي ستُربى فيها أجيالكم بعد حين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،